# بصائر من الوحي في فقه النفس وتزكيتها

## ٢- أصول الانحراف في فقه النفس وتزكيتها



حسين عبد الرازق

### (٢) النفس

أما عن (**النفس**) فلقد تشعبت مسالك الناس قديما وحديثا في الحديث عن النفس، وماهيتها، وصفاتها، وما يُصلحها، وما يُفسدها، وكيفية التعامل معها، واضطربوا وتحيروا وقالوا كلاما زاد المسالة غموضا والناسَ ضلالا واضطرابا ودخلوا في متاهات سواء منهم الفلاسفةُ وغيرهم، وكثير من المدارس النفسية اعتنتْ بمظاهر حاجات النفس دون الروح تتعامل مع الإنسان كأنه مادة وآلة وعلاجه في المعامل والمختبرات.

**وصرّح بعضهم قائلا**: ((إن علم النفس الحديث يهتم في أغلب الأحيان بدراسة نواح تافهة وسطحية من سلوك الإنسان ويغفل مشكلات الإنسان الهامة وقيمه العليا)).

**وقال غيره**: ((إن معرفتنا بأنفسنا لازلت بدائية في الغالب)).

وسبق ذكر مصائب وكوارث العلم التجريبي والتقدم التكنولوجي غير المرشّد بالدين والأخلاق في محاضرة: (مقاصد المعرفة)

السعادة أمر داخلي وليس خارجيا لذلك سيبقى في الإنسان حاجة وفقر وتشتت واضطراب لن يهتدي ولن يطمئن ولن يسكن إلا بربه تبارك وتعالى.

### حاجة العبد إلى الإيمان بالله:

**قال ابن القيم رحمه الله**: ((إن في القلب شعثًا: لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشةٌ: لا يزيلها إلا الأُنسُ به في خلوته، وفيه حزنٌ: لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيرانُ حسراتٍ: لا يُطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلبٌ شديدٌ: لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوبَ، وفيه فاقةٌ: لا يسدها إلا محبته ودوام ذكره والإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا!!)).

### أصلُ الضلال وأعظم الغلط:

عند كلّ النظريات الفلسفيّة وما تبِعها ويدخل في ذلك كلُ المذاهب الوضعية من علمانية وليبرالية ومدنية وحداثة وغيرها ممن لم يعتمدوا الوحي مصدرا للمعرفة وجعلوا العقل مُستقلّا فيها، وجعلوا الإنسانَ مركزَ الكون = **يمكن أن نحصره في مُنطلَقيْن:**

- ظنّهم أن العقل –مُستقلّا –قادرٌ على تفسير العالم تفسيرا صحيحا شاملا كُليّا = **فهذه جهة المعرفة.**
- وظنّهم أنه قادرٌ كذلك على وضع النظام الصحيح للحياة (أخلاقيّا، واجتماعيا، وعمليّا وسياسيا، والقوانين والعقوبات.) وغير ذلك... = **فهذه جهة العمل.**

وكأن الإنسان هو المدبر لأمره وشئونه ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ يعاند ويدعى استغناءه عن خالقه، فكان من الطبيعي جدا أن يُؤدي بهم إلى القول بالإلحاد (إنكار الإله والدار الآخرة)، وإن كان كثير منهم لا يُصرّح، لكنّه (وإن لم ينطق به) فهو يعيشه، إذ لا حاجة له إلى الله إذن لا من جهة المعرفة، ولا من جهة العمل. وكذلك (الدار الآخرة) فلن يبقى للإيمان بها معنى، إذ ليس ثَم احتبارٌ في الدّنيا ليترتب عليه حساب وجزاء في الآخرة!

فرَضُوا بالحياة الدُّنيا واطمأنوا بها، ولم يرجوا لقاء الله.

**وكثيرٌ من تلك النظريات** كان غُلوّا في مقابل غُلو مَن ألغى دَور النظر والعقل في المعرفة والعمل بالكلّيّة، وحقّر من شأن الإنسان، وحَرمه حقّه ونصيبه من الدُّنيا مُخالفين الوحي والفطرة والعقل.

**فنشأت الثُنائية المُفتعلة إما:**

- ✓ (الإنسان–العقل–الدُّنيا)
- ✓ أو (الله –الوحي/النقل–الآخرة)

والحق ألّا تعارض بينها وأنها مجتمعة متكاملة

**وسبب الضلال في هذه الأبواب من جهات:**

- عدم العلم بالنفس
- الجهل بالله وحكمته وقدره وشرعه
- وبالتالي: عدم العلم بما يُصلحها ويفسدها

وذلك لأن نفسَ الإنسانِ غيبٌ، والإنسان وإن علم شيئا عن نفسه فالغائب منها عنه أكثر، ثم هو لا يعلم سبل تزكيتها وإصلاحها

**وأما عن الأديان:** سواء منها المخترعة أو المحرّفة فهي بين تلبية شهوات الأنفس بغير هدى من الله، أو الرهبانية المبتدعة المعتمِدة على تحريم الطيبات وتعذيب النفس، ومخالفة حاجاتها.

**من أخصّ أسبابِ ضلالِ مَن قبلَنا–والتي كانت سببا لجُملةٍ من المصائب التي أصابتهم**–فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

**فأساسُ الضلالِ عن سواء السبيل:** إما بتحريف الوحي، أو في ترك اتباعه.

ونُلاحظ أنَّ اللهَ تعالى وَعدهم أنه معهم وناصرُهم إن استقاموا على أمره وحفظوا ميثاقَه

فلما لم يستقيموا ونقضوا العهدَ أصابتهم سيئاتُ أعمالهم = فلُعِن اليهود وجُعلتْ قلوبُهم قاسيةً يعني: غليظةً يابسةً عن الإيمان بالله والتوفيقِ لطاعته، منزوعةً منها الرأفةُ والرحمةُ.

**وفي قراءة – حمزة والكسائي– (قَسِيَّةً)، وإنما " القَسية " في هذا الموضع:** القلوبُ التي لم يَخلُصْ إيمانُها بالله، ولكنْ يُخالطُ إيمانَها كُفْرٌ، كالدراهم " القَسِيَّة "، وهي التي يُخالطُ فضّتَها غشٌّ من نُحاسٍ أو رَصاصٍ وغير ذلك

وهم لنزعِ اللهِ عز وجل التوفيقَ من قلوبهم والإيمانَ= يحرّفون كلام ربِّهم الذي أنزله على نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة، فيبدّلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله اللّهُ جل وعز على نبيهم، ثم يقولون لجُهال الناس: هذا هو التوراة، وأغرى الله تعالى بين النصارى العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة، ثم مرجعُهم إلى الجحيم.

ثم دعاهم جميعا للاهتداء بالوحي والاستقامة عليه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

﴿فاستقمْ كما أُمرتَ ومن تابَ معك ولا تطغوا﴾

﴿ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾

أصلُ الضلال الجامع للانحراف في **(ترك الاهتداء بالوحي)**

**وقد وقعت انحرافات عظيمة في عمل كثير من أهل العبادة والزهد والتصوف، وفي الخطاب الوعظي، والكتب المسماة بالزهد والرقائق.**

وكان الأئمة كالبخاري ومسلم وغيرهم في بيانهم هدى النبي ﷺ في تزكية النفس–ضمنا –ينقضون أصول المخالفين لهديِه في التزكية وسبيل ولاية الله، فبمعرفة سُنته تُعرفُ البدعة.

وخير طريق لردّ البدعة بيانُ السُّنة.

وخير طريق لنقض المنكر بيانُ المعروف.

**من أشهر انحرافاتهم في تلك الأبواب:**

**عند غلاتهم:** عدم الاعتماد على الوحي جمعا وفِقها ((وما سمّوه بالكشف والعلم اللدُنيّ)) وجعلوا طريق الوصول إليه هو الرياضات المجاهدات المبتدعة ويظنون أنه بذلك تنكشف لهم الحُجُب عن أعين قلوبهم فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ولذلك لم يشتغلوا بدراسة العلوم وجمع الأقوال والأدلة لأنهم -زعموا- سيصلون إلى المعارف من الله دون واسطة. وطريق ذلك المجاهدة وقطع العلائق (كما ذكر الغزالي ذلك عنهم في إحياء علوم الدين)

**وفي الواقع هم دخلوا في رياضات مخترعة ليتجردوا عن شهواتهم فوقعوا في أعظم منها:** ترك الاهتداء بالنبي ﷺ وظنهم إمكان أن يكونوا أولياء من غير طريقه! وينكرون على من يعتني بسنة النبي ليعرف هديه: بأن ذلك حال العوام وأما الخواص فيتلقون بقلوبهم عن الله!

- ✓ ونشأ عن هذا الأصل ضلالات بلغت حد الزندقة والكفر والفساد والفواحش وتحريم الحلال وتحليل الحرام
- ✓ ونشأ عن ذلك جملة من الضلالات وأطلقوا عليها مسميات وأوصافا وجعلوها مراتب مثل ((الفناء)) الذي أدى بهم إلى القول بالحلول والاتحاد (الزعم بأنه لا موجود إلا الله وأن وجوده هو وجود المخلوق).

**ومنه: التحلل من الالتزام بالشريعة أمرا ونهيا بحجة أنهم خواص وصلوا إلى اليقين، وأن التكاليف الشرعية هدفُها:** حصول المعرفة واليقين في القلب فمن وصل فيسقط عنه التكليف ويحرفون معنى قوله ﴿واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين﴾ (انظر مدارج السالكين)) والمقصود باتفاق المفسرين أن اليقين هنا هو الموت.

**ونشا بدع عملية** مثل الاجتماع على الغناء والرقص وجعلوها من باب القُربات، فضلا عن الموالد والشرك ودعاء غير الله والنذر والذبح لغير الله وانتشار الدجالين والسحرة والمجون في هذه الاجتماعات وغير ذلك.

**ومن ذلك زعمُهم أن التزكية لا تتم إلا عن طريق شيخ واحد معيّن** هو الذي يزكي نفس مُريدِه لا يمكن أن يصل على ربه إلا عن طريقه ولا يمكن له إصلاح نفسه بنفسه ، كما هو حال المريض مع الطبيب ، والمريض لابد أن يصرّح له بكل ما فيه ولا يخفي عنه شيئا وأن يستجيب لما يأمره به من علاج ويستسلم له ويطيعه طاعة مطلقة وأن يكون مسلوب الاختيار معه كالميت بين يدي المغسّل، بل ويطلب منه المدد، ويتوجه إلا الله بواسطة شيخه، فالشيخ هو كعبةُ المريد في سائر حاجاته، وهو العَين الذي يرى بها الحق، وأن الشيخ ولو قلّت أعماله الظاهرة فهو بباطنه وكل يوم من أيامه فهو عند الله بألف سنة مما يعده المريدون عند ربهم، وأنه لا يجوز له اتباع أكثر من شيخ لأنه يؤدي للفساد والتناقض، ويُشترط في الشيخ أن يكون مأذونا له بالإرشاد من شيخه ليكون متصل المدد، ومَن لا شيخ له يرشده فشيخُه الشيطان[١].

---

(١) راجع: (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني (١/٦٤- ٨٤)) و((عوارف المعارف للسهروردي من ص ٩٥)) و((جواهر المعاني لأحمد التيجاني ٢/١٨٥)).

وإن كان أئمة مشايخ السلف (المنسوبين للتصوف والمعرفة) يطلبون الهدى من الوحي وهدي النبي ﷺ لم، بيّن ذلك ابن تيمية كثيرا ومنه قوله(( فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف: مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر، والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور، ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم))(١).

- وفيما يُرجَع فيه إلى الوحي (ضعف التحرير والتصور والجمع، والاعتماد على الضعيف والموضوع من الأحاديث، أو نسيان حظ من الوحي، وضعف فقه الوحي والاستنباط منه واستثماره وتوظيفه في الواقع)
- الاعتماد على قصص العبّاد ومقالاتهم وجعلها المحكم والميزان، وتصديرها للناس، والتكلُّف في تصحيح أخطاء العبّاد في أقوالهم وأفعالهم المخالفة للهدي
- حصر مفهوم العباد في بعض شعب الإيمان
- **ونشأ عنه حصر أولياء الله في العاملين ظاهرا بتلك الأعمال التي حصروا العبادة فيها:**
  - الغلو في المشروع (كما وصل الخوف ببعضهم على اليأس).
  - التعبد بما ليس مشروعا كالحزن وتحريم الطيبات، وحرمان النفس من حاجاتها واحتقار النفس وتعريضها للهوان، وغلا بعضهم فحكى أنه ركب الأهوال وسكن الخرابات ومشي حافيا على الشوك وكان قوتُه القمامة وتظاهر بالخَرَس والجنون لينصرف الناس عنه وادخلوا مستشفى المجانين ونشأ من ذلك رهبانية مبتدعة(٢).
  - ومنه ترك حاجات النفس من الزواج ونحوه فنظر كثير من العُبّاد إلى الزواج على أنه أمر دنيوي محض ومن ركن إليه فقد قلت درجته وانشغل بالدنيا.

قال الغزالي: (( **بيان ما على المريد في ترك التزويج:** اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى، حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما في الدنيا تقدم ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين!

ولذلك قال أبو سليمان الداراني: (من تزوج فقد ركن إلى الدنيا)، وقال: (ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول، وقيل له مرة ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها فقال لا آنسني الله بها أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى)، وقال أيضا: ( كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم فكيف يقاس غير رسول الله ﷺ به وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسري

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥١٦).

(٢) ((الأنوار القدسية للشعراني)) (١/١٤٢)، ((إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني)) (ص٤١٠).

ذلك إلى قالبه فيهدمه ....)) مع أن الغزالي نفسه حذّر ممن يدعي أن تزكية النفوس لا تكون إلا بإماتة حاجات النفس وبيّن سوء عاقبة من يفعل ذلك من فساد العقل أو ترك العبادة والوقوع في الشهوات بل تركوا العبادة بحجة استغناء الله عن عبادتهم(١).

إلا أنه هنا يُحرّف فيجعل طريق التزكية بترك الزواج.

**قلت:** فهذا من جملة تحريف باب التزكية والاستقامة والاحتجاج لمخالفة هدي المرسلين وهم أعظم الأولياء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ بحُجة أن قلوبنا غير قلوبهم من جنس حُجة الثلاثة نفر: ذاك رجل غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

**وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا»(٢).

وللعلماء في تفسير " **التنطع** " و " **المتنطعين** " عبارات كثيرة، تتوافق ولا تتعارض، وكلها تجتمع في معنى واحد، يرجع إلى التكلف والتشدد فيما لا ينبغي وفي غير موضعه الصحيح.

**ومن هذه المعاني:**

١-الغلو في العبادة والمعاملة، بحيث يؤدي إلى المشقة الزائدة، والشريعة لم تأمر إلا بما فيه يسر وسماحة، ونهت عن التشدد في الدين، وصور الغلو التي أحدثها الناس في الدين وعدها العلماء من التنطع لا تكاد تحصى بعدد.

يقول النووي (٣) في: " أي: المتعمقون، الغالون، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم " انتهى.

٢-الابتداع في الدين، بتحريم ما لم يحرمه الله ورسوله، واستحداث صور من العبادات والإلزامات لم تكن على عهد النبي ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٤): (الرهبانيات والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث قال : «هلك المتنطعون»، وقال: (لو مد لي الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم) مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة، مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم، وأن يقوم قائما ولا يجلس، ولا يستظل، ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس ، وليستظل ، وليتكلم ، وليتم صومه»(٥). وهذا باب واسع " انتهى.

وقيل هو كل مبالغة وتكلّف.

---

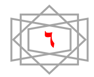
(١) انظر: (إحياء علوم الدين(٣/٢٣٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

(٣) شرح مسلم (١٦/٢٢٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٦٢٠).

(٥) رواه البخاري.



وهذا مما أُخذ عن مبتدعة أهل الكتاب تماما كما هو في كتب تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، وبعضُه مبني على قاعدة غير دقيقة [الأجر على قدر المشقة]

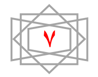
وأدّى ذلك إلى خروج كثير منهم من الدين كله، ذكر ابن تيمية: (من غلا في الزهد والورع حتى خرج عن حد العدل الشرعي؛ ينتهي أمره إلى الرغبة الفاسدة، وانتهاك المحارم، كما قد رئُيَ ذلك وجُرِّبَ).

بل كان ذلك من أخص أسباب قيام المذاهب العالمانية القائمة على إنكار الإله والوحي والدار الآخرة والعبادات، وطغيان الإنسان وتقديس العقل والدخول في منكرات الفواحش وشذوذات الأفعال.

- ومنه الشهق والصعق عند تلاوة القرآن أو استماعه
- وتصعيب طرق الوصول إلى الله والمشقة على الناس
- وكان لذلك أثر خطير في جعل كثير من طالبي الاستقامة أن يترك مجاله النافع ودراسته ليتفرّغ لتلك الأعمال
- إهمال الحديث والتذكير بكثير من الشعب
- وتضييع حقوق النفس والأهل والضيف والجار
- عدم اعتبار الوحي في قَدر ورُتبة العمل في الشريعة ونشأ عنه خطأ تعظيم الأقل والاستهانة بالأعظم
- التركيز على التعبد الفردي وإهمال الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونفع الناس والسعي لمصالحهم
- استعمال ألفاظ غير شرعية وجعلها سائدة عامة في الناس، مثل لفظ: الخدمة، والعشق، والالتزام، والعارف بالله، الحقيقة، الفناء، الاصطلام وغيرها.
- عدم الاعتناء بتصوّر واقع الناس تصورا دقيقا لوضع برامج للتزكية متناسبة لواقعهم
- ومن ذلك إشعارهم – بشكل غير مباشر–أن الاستقامة لا تنسجم مع الواقع والحياة بل لا تصلح إلا بالعُزلة والانفراد
- حصر أسباب الإخفاق في كل شيء في الذنوب وضعف الإيمان وبالتالي حصر الإصلاح والنجاح في التوبة والعمل الصالح
- ومنه: إرجاع كل بلاء وظلم من الحكام أو غيرهم إلى ذنوب الناس وحصر رفع البلاء ودفعه في التوبة وإصلاح النفس
- وبشكل عام قلة فقه باب (الأسباب) من الوحي وحياة النبي والصحابة.
- أسهم كل ذلك في نشأة جيل من أهل الاستقامة مُشوَّهٍ من حيث العلم والعمل وفقه دينه والعمل له والإصلاح وأعطوا صورة جديدة من رهبانية النصارى.

**ويمكن مراجعة كتب:**

- ✓ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
- ✓ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية.
- ✓ ومدارج السالكين لابن القيم.
- ✓ ومنهج الإسلام في تزكية النفس لأنس كرزون.



- ✓ وموقف ابن تيمية من الصوفية للعريفي.
- ✓ والصوفية: المنشأ والمصادر لإحسان إلهي ظهير.
- ✓ وكتاب نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف لخالد كبير علال.

**والسبب الرئيس: إما ترك حظ مما ذكروا به أو تحريفه ولا يكون إلا بتركه.**

## (٣) سبيلُ الهدى في فقه النفس وتزكيتها

إن سبيل الهُدى في كل ما يطلبه العبد في دينه هو من الوحي وبيانه من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أبواب الإيمان والعبادات والأحكام والأخلاق وتزكية النفس والاستقامة وأعمال القلوب وغيرها:

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٩٩] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩] وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً».

يقول ابن تيمية: (إن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق وهذا كله مبين في الكتاب والسنة، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه. ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول، لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة.

وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة)[(١)].

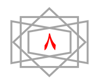
ويقول أيضاً: (المِعْلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب النبي ﷺ فمن بنى الكلام في العلم – الأصول والفروع – على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة، وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البد نية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريقة أئمة الهدى)[(٢)].

أهل السنة والجماعة وسط بين المشتغلين بالعبادات القلبية فقط –كالصوفية –، والمشتغلين بالعبادات الظاهرة فحسب – مثل بعض الفقهاء – فقام أهل السنة بالعبادات الظاهرة والباطنة معاً.

يقول ابن تيمية: (كثر في المتفقهة من ينحرف عن طاعات القلب وعباداته، من الإخلاص لله، والتوكل عليه، والمحبة له، والخشية منه، ونحو ذلك.

---

(١) (١٩/٢٧٣).
(٢) (١/٣٦٢).



وكثر في المتفقرة والمتصوفة من ينحرف عن الطاعات الشرعية، فلا يسألوا إذا حصل لهم توحيد القلب وتأهله أن يكون ما أوجبه الله من الصلوات، وشرعه من أنواع القراءة والذكر والدعوات أن يتناولوا ما حرم الله من المطاعم، وأن يتعبدوا بالعبادات البدعية من الرهبانية ونحوها، ويعتاضوا بسماع المكاء والتصدية عن سماع القرآن)

ويقول ابن القيم: (إن لله على العبد عبوديتين: عبودية باطنة، وعبودية ظاهرة فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية، فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعريه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه، ولا يوجد له الثواب وقبول عمله. ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء (الفقهاء)، انحرف عنها هو إلى أن صرف همه إلى عبودية القلب، وعطل عبودية الجوارح، وقال المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع.

والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل، هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية جوارحهم، ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم، والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعاً لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقة العبودية)

والحق في تلك الأبواب وسط بين من يريد من الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا يريد منه، فقد دل الوحي أن المؤمنين يريدون الله تعالى، ويريدون ثوابه، فهم خواص خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وأما الذين يريدون من الله ولا يريدون الله، فهؤلاء ليس في قلوبهم غير إرادة نعيم الجنة المخلوق، كحال أكثر المتكلمين، المنكرين رؤية الله تعالى، والتلذذ بالنظر على وجهه في الآخرة، وهم عبيد الأجرة المحضة، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدس، ومنهم من يصرح بأن إرادة الله تعالى محال.

وأما الذين يريدون الله ولا يريدون منه، فكحال الصوفية.

**ومنشأ اشتباه واضطراب كلا الفريقين** أنهم ظنوا أن الجنة التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس... **ثم صاروا فريقين:**

- ✓ أحدهما: أنكروا رؤية المؤمنين لربهم كالمتكلمين من المعتزلة والجهمية ونحوهم،
- ✓ والفريق الآخر أثبتوا الرؤية، لكن أخطئوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة.

أهل السنة وسط بين أهل الفجور والفواحش، وأصحاب الرهبانية والتشدد.

فأهل الفجور هم المترفون المنعمون، ممن أسرفوا على أنفسهم، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأما المترهبون فأوقعهم في البدع غلوهم وتشديدهم، فحرموا ما أحل الله من الطيبات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

فنهى سبحانه عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وعن الاعتداء في تناولها وهو مجاوزة الحد، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة، بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا، وقيل: لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس

وعندما ذكر الذهبي رحمه الله ما تُنال به الولاية ذكر ما كان من هدي النبي ﷺ: (السلوك الكامل هو الورع في القوت، والورع في النطق، وحفظ اللسان، وملازمة الذكر، وترك مخالطة العامة، والبكاء على الخطيئة والتلاوة بالترتيل والتدبر، ومقت النفس وذمها في ذات الله، والإكثار من الصوم المشروع، ودوام التهجد، والتواضع للمسلمين، وصلة الرحم، والسماحة وكثرة البشر والإنفاق مع الخصاصة، وقول الحق المر برفق وتؤدة، والأمر بالمعروف، والأخذ بالعفو، والإعراض عن الجاهلين والرباط بالثغر، وجهاد العدو، وحج البيت، وتناول الطيبات في الأحايين، وكثرة الاستغفار في السحر، فهذه شمائل الأولياء، وصفات المحمديين، أماتنا الله على محبتهم)[١].

ويقرر ابن القيم أن السلوك وتزكية النفوس لا يكون إلا عن طريق الرسل عليهم السلام فيقول: (وتزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل)، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً، وبياناً، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان)[٢].

وقال ابن تيمية بقوله: (والسلوك سلوكان: سلوك الأبرار أهل اليمين، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنًا وظاهراً). والثاني: سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم، كما قال النبي ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

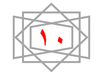
وإذا كان عامة من ضل في أبواب الإيمان بسبب الإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فكذلك الضلال في باب تزكية النفس والاستقامة، إنما كان ناشئاً – في الجملة – بسبب الإعراض عن الوحي، كما هو ظاهر في متأخري الصوفية، وأرباب الطرق المحدثة.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

---

(١) ((سير أعلام النبلاء ١٢/٩٠-٩١)).

(٢) ((مدارج السالكين ٢/٣١٥)).



قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفّل الله لمن قرأ القرآن وعمل به، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية».

بل إن البدع في باب العبادة وتزكية النفس أكثر من البدع الاعتقادية، كما بين ذلك ابن تيمية بقوله: (ولا ريب أن البدع كثرت في باب العبادة والإرادة أعظم مما كثرت في باب الاعتقاد والقول، لأن الإرادة يشترك الناس فيها أكثر مما يشتركون في القول، فإن القول لا يكون إلا بعقل، والنطق من خصائص الإنسان، وأما جنس الإرادة فهو مما يتصف به كل الحيوان فما من حيوان إلا وله إرادة))[1].

وصنف متأخرو الصوفية كتبًا كثيرة في التزكية، وغلب على تلك الكتب قلة العلم بالسنن والآثار، وكثرة الموضوعات، والتعويل على أخبار متأخري الزهاد، والبدع ومخالفة هدي النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فلا تخلو تلك الكتب من حق وصواب.

وسمى أرباب الطرق الصوفية ما أحدثوه من البدع (حقيقة)، فطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، بل قدموا أذواقهم ومواجيدهم وكشوفاتهم الباطلة على نصوص الوحي.

يقول ابن تيمية في هذا الصدد: (من عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان، هذا حال الكفار الذين قال فيهم: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقا).

وقال ابن القيم – مبيناً آثار ذلك الإعراض: (وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب فهذه فتنته ن والفتنة به شديدة).

ومن غلوهم في الانحراف والإعراض عن هدي الله تعالى، حتى قال قائلهم: (حدثني قلبي عن ربي وقال بعضهم: نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت وأنتم تأخذونه من حي يموت، وقال الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل، وقال رابعهم: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ (أخبرنا) و (حدثنا) فأغسل يدك منه !!

قال أبو الوفاء ابن عقيل (ت ٥١٣هـ) في نقد تلك الأقاويل: (فإذا قالوا (أي الصوفية) عن أصحاب الحديث قالوا: أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، فقد طعنوا في النبوات، وعولوا على الواقع، ومتى أزري على طريق، سقط الأخذ به ومن قال: حدثني قلبي عن ربي فقد صرح أنه غني عن الرسول، ومن صرح بذلك فقد كفر، فهذه كلمة مدسوسة في الشريعة تحتها هذه الزندقة، ومن رأيناه يزري أن يكون من إلقاء الشياطين فقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى

---

[1] مجموع الفتاوى((١٩/٢٧٤)).

﴿أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وهذا هو الظاهر، لأنه ترك الدليل المعصوم وعول على ما يلقى في قلبه الذي لم تثبت حراسته من الوساوس).

وقال ابن القيم معلقاً على تلك العبارات: (ومن أحالك على غير (أخبرنا) و(حدثنا) فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و(أخبرنا) و(حدثنا) إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم).

وقال ابن رجب –في بيان حال القوم: (ومما أُحدث من العلوم، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.
وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم...
وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة والغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً).

وفي فقه التعامل مع من كان على بدعة من هذه قال ابن تيمية: (وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطرق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علماً وعملاً، فإذا لم يحصل النور الصافي، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف، وإلا بقي الإنسان في الظلمة، فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة، إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية.)

وفي بيان الهدي الوسط في تلك الأبواب ويقرر الشاطبي مفهوم الوسطية في هذا الدين فيقول: (الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال. فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه. إلى أن قال: (فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر.

فطرف التشديد – وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر – يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين.

وطرف التخفيف – وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص – يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه.

وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المتبرعين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى، وعليه يجري النظر في الورع والزهد، وأشباههما، وما قابلهما)